• المؤلف:

ابن حزم

شاهد عصر

لا أحد يختار اللحظة التى يولد فيها!.

وقُدِّر لابن حزم أن يجىء إلى الحياة فى أشد لحظات الأندلس قساوة ومأساة وحسما. شهد شمس الخلافة تنحدر نحو المغيب، وقاوم ما استطاع لكى يُبقى عليها، ورآها تتناثر مزعًا، وتقوم على أنقاضها دويلات صغيرة، يحكمها أمراء صغار، سوف يدخلون التاريخ تحت اسم: «ملوك الطوائف». وعاصر فوضى هؤلاء الملوك وصغارهم، ورأى دولهم تنتحر فى بطء، وتسرع نحو الهاوية فى بلادة، وعبثا نجد جوابا لسؤال يتردد فى الخاطر أحيانا: ماذا لو عاش ابن حزم فى غير هذه الأعوام، لو جاء قبلها بقرن، أو تأخّر به القدوم بعدها بزمن؟. المؤكد أن حياته وسط هذه الأحداث شاهدًا، ومشاركته فيها مؤثرًا، جعلت منه قمة الفكر الإنسانى فى مطلع القرن الحادى عشر، فى الشرق والغرب، فى العالمين الإسلامى والمسيحى على السواء. كان سياسيًا ورجل دولة، شاعرًا وكاتبًا ومؤرخًا، مفكرًا وفيلسوفًا، وفقهيًا جَدِلاً لَدِدَ الخصومة، عنيف الحوار.

ولن أمضى مع حياة ابن حزم تفصيلا، لقد درسها فى عمق ورزانة وتأن المستشرق الإسبانى، العالم الفيلسوف ميجيل أسين بلاثيوس، فى كتابه: «ابن حزم القرطبى»، وقد أنهيت نقله إلى العربية، وسأدفع به إلى المطبعة قريبا، وفيه الغناء، كل الغناء، لمن يطلب المزيد. وسأكتفى هنا بالملامح البارزة، التى تعيننا على فهم إبداع «كتاب الأخلاق والسير» ومحتواه، وإشاراته.

• أسرة من المولدين:

ينحدر ابن حزم من أصول ليست واضحة تماما، وأشدها احتمالاً، وهو أمر غير مؤكد. أنه ينتسب فى أسرة من المولَّدين، أى أنه ينحدر أصلاً من الأجناس التى وجدها المسلمون لحظة الفتح. ولا يمكن الجزم بأصول هذه الأسرة، هل هى لاتينية أو قوطية، أو من بقية الأجناس التى مرّت بشبه الجزيرة واستقرت فيها من الأفارقة والفينيقيين والسلتيين. ولا يمكن الجزم كذلك بالديانة التى كان عليها أسلافه، أهى الكاثوليكية أم ديانات أخرى، أم الوثنية، وكان لها عُبّاد فى القرى الثائية لحظة الفتح الإسلامى.

وليس للأسرة تاريخ عريق فى الإسلام، فلم تكن مع السابقين إليه لحظة الفتح، أو ما تلاها من أعوام. كانت كملايين آخرين، من صغار الفلاحين فى القرى الثائية، تمضى حياتها هينة متثائبة، بلا آلام ولا أحلام ولا أمجاد. تعيش من الزراعة، على أرض لها، فى ضيعة

صغيرة، كانت تسمى على أيام ابن حزم منت لشم Montlisam، وأخذت فى الإسبانية المعاصرة صورة منتيخر Montijar، أو بدون الراء الأخيرة، فى مقاطعة ولبة Huelva، جنوب غربى الأندلس.

ولم تكن الحياة فى هذه المنطقة سهلة ولا ميسرة، ولا تزال حتى يومنا، محدودة الموارد فى الزراعة، قليلة الصناعة، لا يكاد إنتاجها من الحبوب يكفى فلاحيها، على حين تزداد العاصمة قرطبة ثراء وتقدمًا، وتصبح الحياة فيها أمنية، تستهوى عامة الناس وبسطائهم، وتداعب آمال كل طامح، وبخاصة أحلام أسرة ترغب، وتعمل جاهدة، فى تحسين واقعها الاقتصادى، فترك سعيد، جد ابن حزم صاحبنا، ولبة حيث يقيم، وجاء إلى العاصمة. ولا نملك معلومات وافية عن حياة سعيد فى قرطبة، والقليل الذى وصلنا منها غامض، ومتناقض، ولدينا أخبار وفيرة عن ابنه أحمد، والد أبى محمد على موضع درسنا.

كان أحمد، فيما يبدو، فطنًا ودودًا، مثقفًا أديبًا، مستقيمًا عاقلاً، مقتصدًا وماهرًا فى شئون المال، بارعًا فى مواجهة المواقف السياسية المتناقضة، ذا طموح يقظ، قادرًا على كبح جماحه عند الضرورة، مسالمًا دائمًا، ومسلّحًا بكل هذه الصفات بدأ يشق طريقه ليكون له فى مناصب الدولة نصيب. وفى هذا الوقت كانت منتديات قرطبة تتهامس حديث نجم يمضى صعدًا بلا توقف، فتى من أبناء

الأقاليم يدعى المنصور بن أبى عامر. كان مثل سعيد ابن حزم ريفيًّا، هبط قرطبة ذات يوم، ضائعًا مغمورًا يبحث عن المجد، ويؤمل أن يلقاه فى عاصمة الغرب الإسلامى. ولكنه على العكس من سعيد، ينتمى فى أسرة عربية عريقة، ولو أن معلوماتنا أيضا عن أيامه الأولى قليلة وغامضة.

ولم يكن منصور فردًا فى طموحه وصعوده. كثيرون كانوا يرقبونه، وعلى نية أن يتبعوه، وقد بدأ دم جديد يتدفق فى شرايين الدولة، فأتى على الأسوار العالية، التى أقامها أبناء البيوتات العريقة، وكانت المناصب الكبرى وقفًا عليهم، سنة جارية، وتقليدًا محترمًا. وهكذا وجد أحمد طريقه إلى مناصب الدولة، ربما لأنه كان مولى لبنى أمية، وهذه تحسب له، وأكيدًا لأنه أشاع الثقة فيمن حوله، بقدرته وحنكته. ومع البداية واصل سيره قدما، ونجهل خطواته الأولى، ولابد أنه كان ذا دهاء سياسى رفيع، ليظل وفيًّا لهشام المؤيد الخليفة، وموضع ثقته ورعايته، دون أن يثير فى أعماق المنصور، وكان الحاكم الفعلى أو فى طريقه ليصبح كذلك، روح الشك والخوف، بل حاول المنصور أن يربحه، وأن يضمه إلى جماعته.

وقد ترك أحمد منزله، لأول مرة، فى بلاط مغيث، فى الجانب الغربى من قرطبة، إلى «منية المغيرة» فى الجانب الشرقى من

المدينة، مكان قريب من الزاهرة، المدينة التى بناها المنصور لتكون مقرًا لحكمه، وعظمت فيه ثقة المنصور، فجعل منه وزيره، يقول ابن الأبار فى كتاب «إعتاب الكتاب»، نقلا عن ابن حيان: إن المنصور «استوزره قبل سائر أصحابه، فى سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة (= ٩٩١م) فى خلافة هشام المؤيد بالأندلس واستخلفه أوقات مغيبه على المملكة، وصيّر فى يده خاتمه».

تلك هى الأسرة التى ولد بينها ابن حزم، أسرة ثرية من طبقة الخاصة الوليدة، طبقة كبار الموظفين، تعيش فى ترف ورفاهية، وفى مستوى حياة أعلى طبقات المجتمع القرطبى، ويضغط عليها فى طيات النفس أمران غير ظاهرين: تواضع الأصل، ولا إسلامية السلف، وكان عليها أن تتحرر منهما، وأن تتغلب عليهما، وفى أشجار النسب متسع، وهو طريق سلكه قبلهم، ومن بعد، آخرون كثيرون. والأمر الثانى: الولاء الموزع بين هشام المؤيد ولى نعمته، والمنصور راعيه.

• **طفولة بين الحريم:**

ولد أبو محمد، على بن أحمد بن سعيد بن حزم، فى قرطبة، صبيحة الأربعاء آخر يوم من رمضان عام ٣٨٤هـ – ٧ من نوفمبر ٩٩٤م. وطبقًا لما يرويه ابن حزم نفسه، فى مواضع مختلفة من كتابه «طوق الحمامة»، صريحًا أحيانًا، وموارِبًا أحيانًا أخرى،

نعرف أنه أمضى طفولة رخية وضعيفة وكسولة، طفولة ابن وزير، يشب فى أبهاء القصر، وتحت رعاية الخدم، وبين مناغاة النساء، من القيان والجوارى والإماء، على أيديهن نشأ، ومعهن تربَّى؛ ولم يعرف غيرهن من الرجال حتى حدّ الشباب، وكنّ حاضناته وأستاذاته، علّمنه القرآن، وروّينه الشعر، ودرّبنه فى الخط، ومنهن تعلّم أشياء أخرى ليست أقل نفعًا، ولكنها مؤذية فى سن الطفولة. لقد أظهرنه فى سن مبكرة على أسرار الحياة الجنسية، ومناورات القصور، وحيل النساء. فنشأ صبيا سريع التأثر، كثير المرض، ملحوظ العصبية، متوقد الذكاء، مطبوعًا على الغيرة، سئ الظن بالمرأة وقد خبرها عن قرب، وأشرف من أسبابها على غير قليل.

أقصى ما عرف من العالم فى صباه شوارع «منية المغيرة»، حى كبار موظفى البلاط، الملاصق لقصر الزاهرة، فى نزهات أغلب الظن أنها لم تكن طويلة، ولم يكن فيها وحيدا، وربما قادته قدماه إلى قصر المنصور نفسه، وكان ابن أبى عامر ودودًا جدًّا مع الأطفال، يهش لرؤيتهم ويسعد بمحضرهم. ولم يشر ابن حزم إلى شىء من هذا فى مؤلفاته، ولكن صديقه وتوأم روحه، أبو عامر بن شُهَيْد، قصّ علينا بعض ما حدث له، فى رسالة جميلة، كتبها فيما بعد رجلا، إلى المؤتمن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر،

وقد أصبح أمير بلنسية، وأورد لنا ابن بسام فقرات طوالا منها فى كتابه «الذخيرة». يتحدث ابن شهيد عن صلته بالمنصور طفلا فيقول: «إنى نشأت فى حجره، ورُبيِّتُ فى قصره، وارتضعتُ ثَدْىَ كرائمه، واعتجرت رداء مكارمه، واغتذيت من فيه، أكلاً زَقَّنيه، وماءً علَّنيه، فصرتُ أفراخ نعمائه الحمر الحواصل، ولحقت بأخوة أبنائه الغر العباهل».

وكان ابن شهيد نِدًّا لابن حزم، ويكبره بعامين فحسب، وينتمى فى أسرة عربية عريقة، وكان أبواهما موظفين كبيرين، وزيرين فى قصر الحجابة، وعلى نفس المسافة من المنصور، فليس مجازفة إذن أن نتصور أن ابن حزم، كابن شهيد، كان يتردد على قصر الحجابة، ويحظى بحنان المنصور، والطريق إليه أيسر من الوصول إلى الخليفة الوقور المحتضر، وقد دفنه المنصور حيًا.

• ثّوار وعباد جمال:

فى عام ٣٩٢هـ – ١٠٠٢م، تحققت رغبة المنصور العظيم أن يموت فى ساحة الوغى، وأن يلقى الله مجاهدًا، أثناء عودته من حملة قام بها على قشتالة، وهى الحملة الخمسون من حملاته العسكرية، وطبقًا لوصيته دفن حيث لفظ نفسه الأخير، فى مدينة سالم، ومعه الغبار الذى تجمّع على درعه أثناء حملاته المتعددة، وكان يحتفظ به لهذا الغرض، وعلى قبره هذا الشاهد:

آثــارُه تُنبيـك عـن أخبـاره حتـى كـأنَّك بالعيـان تـراهُ
تا اللهِ لا يأتى الزمانُ بمثلـه أبدًا ولا يحمى الثغورَ سواه

وتولى الحجابة بعده ابنه عبد الملك المظفر، ومعه أمّلت الأندلس خيرًا كثيرًا، وبخاصة فى أيامه الأولى، وكان ابن حزم فى الثامنة من عمره، يطل على العالم فى بيتهم بدأ غرامياته الأولى مع جواريهم، وقرأ أوليات المعارف من فقه ولغة وأدب، ولقى كبار الأساتذة فى قرطبة، يجيئون إليه أو يذهب إليهم، أساتذة يمثلون كل الأفكار، من أشد الناس ورعًا وتصوفًا وزهدًا، إلى أكثرهم جرأة وتحررًا وتمردًا. وخلال ذلك بدأ ينمى صداقاته، مع صبيان وفتيان من سنه، صداقات عمرّت طويلا، وأخذ بعضها شكلا حميمًا.

وفى الثانية عشرة من عمره، فى عيد الفطر لعام ٣٩٦هـ، نلتقى به فى مجلس الحاجب المظفر، يشارك فى سماع المهنئين من الشعراء بالعيد، ولا يقف به الأمر عند هذه المجالس الرسمية، وإنما يتجاوزها إلى الحرم نفسه، فهو يحدثنا فى «الطوق» أن ضنا العامرية، كريمة المظفر، اقترحت عليه أن يصنع لها أبياتًا من الشعر، اقترحت عليه أفكارها، لتصنع لها لحنًا، وتجعل منها صوتًا يغنى.

ولم يتجــه ابن حزم إلى دراســة الفقه جادًا ومتمكنًا إلا شــابًا مكتملاً، فى السادســة والعشرين من عمره، على ما يقول هو، حين

أخطأ فى صلاة الجنازة على شـخصية هامة، فكان موضع سـخرية الحاضرين، وقد شـك غرسـية غومث فـى الخبـر، ورآه لونًا من المداعبـة، لأن ابن حزم يجب أن يكون قد درس الفقه وعلم الكلام مبكرًا، ولا أرى تناقضًا بين الأمرين، لأن الدراسة النظرية لا تعنى عدم الخطأ، لأن الممارسة تلعب فى العبادات العملية دورا أكبر من القراءة والدرس، وصلاة الجنازة ليسـت مما يصلى كل يوم أو حتى كل شـهر، وإشارة ابن حزم إلى أنه بدأ دراسة الفقه لا تعنى أكثر مـن أنه راجع ما قرأ، وتعمق فيما درس، واسـتحضر ما كان غائبًا من تفصيلات.

وأيًّا ما كان الأمر، فقد اختار ابن حزم فى هذه الفترة المبكرة من شبابه، أن يكون واحدًا فى رفقة من الأصفياء، ربطت بينهم صداقة وطيدة، أقلية من العشاق المصقولين، تنتمى إلى أعلى طبقة فى المجتمع القرطبى، عرض ابن حزم لبعضهم فى «طوق الحمامة»، وأثنى عليهم كثيرا، يتميزون بالأناقة، ويرتدون أفخم الثياب، فى أحدث الأنماط، يفتنهم الجمال، وتستهويهم الطبيعة، تطربهم الموسيقى، ويفضلون الأدب، ويتبعون فيه منهجا ثوريًا. كان هؤلاء الفتية، كما تخيلهم غرسية غومث، «يرتدون ملابس بيضاء، ويحاورون بين أروقة بيضاء، يغرمون بالأوز، ويعشقون النساء الشقراوات».

هؤلاء الفتية من الخاصة فى قرطبة كانوا يقفون عند نماذج الأدب المشرقى، يعرفونها، ثم يطرحونها، ويحاولون أن يرتفعوا إلى مستواها. كانوا باختصار يقرأون كثيرًا، ويتمثلون ما يقرأون، ويرحلون عبر العالم واقعًا أو قراءة، ثم يبدعون أخيرًا. لقد التزموا منهجًا وسطًا، ينأى عن التحلل الهابط، ويتجاوز التقليد المميت، ويزاوج بين حداثة الفكرة، ودقة الصياغة، وحرية الاختيار، وهى القواعد التى جعلت منها الخلافة طابع المجتمع فى قرطبة. وكان الأدب الجديد يطمح أن يكون فى مستوى الحياة، وموائمًا للتطور السياسى حوله، وكما يحدث عادة، جاء ذلك متأخرًا. وحين تهاوى نظام الخلافة بغتة، أطبق على هذا الأدب بين خرائبه، ولمّا يعط إلا قليلا جدًا من ثماره، ثمار مبكرة، وكثرتها غير ناضجة، ولكنها شهية من الطراز الأول.

كان أبو عمر بن شهيد رأس هذه الجماعة، مواضعة وعرفًا، وترك لنا فى رسالته «التوابع والزوابع»، وهى أول رحلة علمانية فى التاريخ إلى عالم الآخرة، ما يمكن أن نعده دستور الجماعة. لقد صحب الكاتب شيطانه إلى عالم الأرواح، والتقى هناك بشياطين كبار الشعراء، جاهليين وإسلاميين وعباسيين، وبعض الكتاب، فأنشدوه أشعارًا لأصحابهم، وأسمعهم شيئًا من شعره، وعرض على نوابغ الكتاب بعضًا من رسائله. وخلال الرحلة ينقد مجتمعه، وما يفتقده فيه، ويعرض آماله، وما يطمح أن يكون عليه.

فهو يأسى لقرطبة تتحدث لكنة أعجمية، تؤدّى بها المعانى تأدية المجوس والنبط، ليس لسيبويه فى كلامها عمل، ولا للخليل إليه طريق، ولا للبيان عليه سمة، ويشكو قومًا من المعلمين فى العاصمة، «ممن أتى على أجزاء من النحو، وحفظ كلمات من اللغة، يحنون على أكباد غلاظ، وقلوب كقلوب البعران، ويرجعون إلى فطن حمئة، وأذهان صدئة، لا منفذ لها فى شعاع الرقة، ولا مدب لها فى أنوار البيان، سقطت إليهم كتب فى البديع والنقد فهموا منها ما يفهمه القرد اليمانى من الرقص على الإيقاع، والزمر على الألحان، فهم يصرفون غرائبها فيما يجرى عندهم تصريف من لم يرزق آلة الفهم، ومن لم تكن له آلة الصناعة». ويكتب أبياتًا ينافس بها الشعراء المشارقة؛ ويؤكد أن الأدب الجيّد يعتمد على الموهبة، قبل أن يقوم على سعة الثقافة، أو مراعاة قواعد النحو، وأن «أول أدوات الكاتب العقل، ولا يكون الكاتب غير عاقل». ويعنى بالعقل الذكاء فى لغتنا المعاصرة. والأدب هبة من الله، لا يعلمه أستاذ، ولا يلتقط من كتاب، والشاعر يولد ولا يصنع، وشر الفن ما كان وسطًا، «لا يحسن فيطرب، ولا يسىء فيلهى»، وهى قاعدة جريئة فى الأدب العربى، وليس دونها جرأة فى تلك الأيام ما رآه، من أن «لكل عصر بيان، ولكل دهر كلام، ولكل طائفة من الأمم نوع من الخطاب، وضرب من البلاغة، لا يوافقها غيره، ولا تهش لسواه».

وتوفى ابن شهيد، عام ٤٢٦هـ – ١٠٣٥م، إثر داء عضال، عانى مرارته زمنًا، وتحمل عناءه صابرًا، وخلفه ابن حزم فى رئاستها، وكان له دائمًا صديقًا وفيًا ومخلصًا، فسار على النهج نفسه، واحترم تقاليد الجماعة وأسلوبها.

• أزمة الخلافة

قبل أن تعطى هذه المدرسة الأدبية ثمارها، أو إذا شئنا الدقة قبل أن يخط ابن حزم أى كتاب مهم له، إذا استثنينا المقطعات الشعرية وبعض الرسائل الأدبية، وقبل أن يتولى أية وظيفة سياسية فى مستوى تكوينه وطبقته الاجتماعية، تفجرّت الحرب الأهلية فى قرطبة، وعكّرت بعنف صفو الحياة المصقولة، والهادئة، لهؤلاء الشبان القرطبيين من عشاق الفن والجمال، ويكفى أن أشير هنا لماما. وفى إيجاز شديد إلى ما أحدثته فى أسرة ابن حزم، وفى حياته نفسه، ليبقى خيط الأحداث متصلا.

لقد توفى العامرى الثانى، الحاجب عبد الملك المظفر، فى ١٦ من صفر ٣٩٩هـ – ٢٠ من أكتوبر ١٠٠٨م، فولى الحجابة بعده أخوه عبد الرحمن الملقب بشنجول، وكان مجردًا من المواهب، فاغتيل فى قرطبة بعد شهور من توليه الحجابة، فى ٣ من رجب ٣٩٩هـ – ٣ من مارس ١٠٠٩م، وعُزل هشام الثانى عن الخلافة، وبويع بها محمد المهدى، وأعفى أحمد بن سعيد من مناصبه،

وترك «منية المغيرة» حى كبار موظفى البلاط، قرب ربض الزاهرة، وقد أتى عليه الثائرون هدمًا وتخريبًا، وعاد إلى سكنهم القديم فى بلاط مغيث، ليواصل الحياة هادئا، وبعيدًا عن صخب السياسة، واستطاع أن يحتفظ ببعض ما له من هيبة، وسنلتقى به فى العام نفسه، فى ٢٧ من شعبان ٣٩٩هـ – ٢٦ من إبريل ١٠٠٩م يشهد المسرحية الرائعة المحزنة، لدفن هشام الثانى، المزيف طبعا! وكان معه ابنه على صاحبنا، وترك لنا وصفًا صادقًا ومؤثرًا لما حدث، يقول فى سياق كلام له عن صلب المسيح وقتله: «وقد شاهدنا نحن مثل ذلك، وذلك أننا إندرأنا للجبل، لحضور دفن المؤيد هشام بن الحكم المستنصر، فرأيت أنا وغيرى نعشًا فيه شخص مكفن، وقد شاهد غسله شيخان جليللان حكمان من حكام المسلمين، ومن عدول القضاة، فى بيت، وخارج البيت أبى رحمه الله، وجماعة عظماء البلد، ثم صلّينا فى ألوف من الناس عليه، ثم لم يلبث إلا شهورًا نحو السبعة حتى ظهر حيًّا، وبويع بعد ذلك بالخلافة، ودخلت عليه أنا وغيرى، وجلست بين يديه، ورأيته، وبقى ثلاثة أعوام غير شهرين وأيام».

وفى ١٠ من ذى الحجة ٤٠٠هـ – ٢٣ من يولية ١٠١٠م، اغتيل المهدى بعد خلافته الثانية، وبويع ثانية هشام الثانى، بعد أن قيل للناس أنه مات ودفن، وبعد أن شهدوا جنازته وصلو عليه!،

وكان الظن أن يعود بنو حزم إلى سابق عهدهم، ومكانتهم القديمة، غير أن الأمور سارت على النقيض. لأن لعبة السياسة المعقدة، والموقف الحذر الذى سار عليه أحمد بن سعيد، حتى ذلك الحين، جعله يصطدم مع القائد الصقلبى واضح، محسوب الخليفة، فلاحقه وسجنه وصادر أمواله. وحينئذ رأت الأسرة، وقد تمزقت بقايا العامريين أن لها الحق، مع غيرها، فى أن تغضب وأن تقاوم، فاشتركت فى عمل لمناهضة الصقالبة، ولكن المؤامرة فشلت، وجلبت على أحمد بن سعيد مصائب كبيرة.

ومع هذه الفتن اجتاح الطاعون قرطبة، وعاث فيها، وفقد أحمد ابنه أبا بكر ضحية له، فى شهر ذى القعدة عام ٤٠١هـ – يونيو ١٠١١م، وبعد عام كامل توفى أحمد نفسه صريع هذه الأحداث، فى ٢٨ من ذى القعدة ٤٠٢هـ – ٢٣ من يونيو ١٠١٢م، ولعلىٍّ صاحبنا ١٨ عاما لمّا تكمل، وكان عليه وهو فى هذه السن الطرية، وفى عنفوان تعاسة أسرته، أن يواجه الموقف، وأن يدير دفة الأحداث.

وبقيت كوارث أخرى أشد هولا، ففى نهاية شوال ٤٠٣هـ – مايو ١٠١٣م، استسلمت عاصمة الخلافة للبربر، ودخلها سليمان المستعين، خليفة للمرة الثانية، وليبقى شهرين فحسب، ومعه نُهِبتْ قرطبة فى قسوة، وانتهكت الحرم، وعمّت الاغتيالات والمذابح، واجتاح التدمير، بلا حساب كل الأحياء، وأتى البربر

على بيت ابن حزم فى بلاط مغيث كاملا، على نحو ما قص علينا فى صفحة من النثر الجميل، فى كتابه «طوق الحمامة»، وكان على ابن حزم أن يهاجر إلى المرية فى ١ من محرم سنة ٤٠٤هـ – ١٣ من يوليو سنة ١٠١٣م.

• منفى ومتآمر:

فى وسط هذه الدوامة من الفوضى والتمزق، كان يحكم المرية خيران، صقلبى من فتيان العامريين، ووصلها ابن حزم برفقة صديقه أبى بكر محمد بن إسحاق، وأمضيا فى البدء أيامًا هادئة، بعيدين عن القلاقل، فالمدينة أموية الولاء، لما تزل – إسميًا – تحت سيادة الخليفة، وأصبحت قبلة العامريين والأمويين الفارين من قرطبة. وأمضى فيها ابن حزم أعوامًا ثلاثة لم يتوقف عن تحصيل المعرفة، وعن تكوين صداقات جديدة، ففيها كما يحدثنا فى «الطوق» اتصل بطبيب يهودى، يدعى إسماعيل بن يونس، يتردد على دكانه، ويجلس إليه فى لمة من الأصحاب ولسوء الحظ فإن معلوماتنا عن هذا الطبيب معدومة، لا نعرف عنه شيئا إلا إشارة ابن حزم هذه.

ولكن خيران ما لبث أن رأى مستقبله السياسى فى أن يتخلى عن الولاء لبنى أمية، وأن يؤازر على بن حمود الإدريسى فى الاستيلاء على قرطبة، فدخلها فى زفة فى ٢٢ من محرم ٤٠٧هـ – ١ من يوليو ١٠١٦م. وأصبحت المرية مدينة علوية لا أموية، وبربرية

لا صقلبية، ولم يعد خيران ينظر بعين الرضا إلى هذين الشابين الرفيقين المثقفين، يؤمنان بحق بنى أمية فى الخلافة، حفاظًا على الشرعية، وتمكينًا لهيبة الدولة، ولا يقبلان فى هذا مساومة فاعتقلها بتهمة التآمر، وهى تهمة ربما كانت محتملة، ولو أن ابن حزم أنكرها على أية حال، وما لبث أن نفاهما.

ومنفيان فى حصن القصر Aznalcazar، وهى قرية توجد فى مقاطعة مالقة، أو مرسية، غير التى تحمل الاسم نفسه الآن قريبا من سان لوكر San Lucar، سمعا من يتحدث عن ثورة قام بها أموى يطالب بالخلافة، فى أرض بلنسية شرقى الأندلس، وأنه أعد جيشًا سوف يزحف به على قرطبة لملاقاة بنى حمود، ليجمع الشمل، ويعيد الخلافة، ويوحِّد الدولة، فلم يترددا لحظة، ابن حزم وصاحبه أبو إسحاق، وكانا فى ميعة الشباب، من التوجه شرقًا إلى بلنسية فى أول سفينة يجدان بها مكانًا.

كان المطالب بالخلافة فى هذه المرة شابًا من أحفاد عبد الرحمن الناصر، يدعى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك، اكتشفه وحرّضه على الثورة خيران الصقلبى صاحب المرية، بعد أن نسى أمسه وغيرّ جلده، وأصبح رسوله إلى منذر التجيبى صاحب سرقسطة، والذى وقف إلى جانبه، وزاد فطلب له العون من حليفه كونت برشلونة. وفى ١٠ من ذى الحجة ٤٠٨هـ - ٢٩

مــن إبريل ١٠١٨م تجمع الجيش والأعوان فى شــاطبة، وبويع عبــد الرحمن بالخلافة، وتلقــب بالمرتضى. ولم تســتطع قرطبة وقــد طال بها الشــوق إلى أمجاد الأمس الزاهــر، ونفد صبرها فى انتظار من يطالب بالخلافة، أن تتحمل المزيد من المعاناة والألم، فاغتالت على بن حمود فى ١ من ذى القعدة ٤٠٨هـ – ٢٢ من مارس ١٠١٨م، فجثم على صدرها أخوه القاسم.

وبينما قرطبة تطوى الضلوع على ثورة صماء، وكراهية غير مكتومة لبنى حمود تحرك عبد الرحمن، وتلقب بالمرتضى نحوها على رأس جيشه، عن طريق جيان، وكان ابن حزم، ضمن هذا الجيش، فيما يرجح، وكانت عاصمة الخلافة مهيأة لاستقبال الخليفة، وكل الظروف تجعل من النصر أملا ممكن التحقيق، لولا خيانة خيران ومنذر فى اللحظة الحاسمة. لقد ظن كلاهما، فى البدء، أن المرتضى سوف يكون مجرد لعبة فى أيديهما، ظِلاً يحكمان من ورائه، فلما وجداه ذا شخصية قوية، قادرة على اتخاذ القرار المناسب فى اللحظة المناسبة أضمرا له الغدر، ومن موقعهما مستشارين وحليفين قدّما له نصيحة قاتلة: من الأفضل له، قبل أن يتقدم إلى العاصمة، أن يقضى على بنى زيرى، من بربر صنهاجة، وقد استقروا فى كورة إلبيرة، واتخذوا من غرناطة عاصمة لهم، وكان على رأسهم حينئذ

الأفريقى العجوز الداهية، زاوى بن زيرى، الذى لم يهزم أبدًا، والذى اضطر بعد قليل، وفى قمة مجده، أن يتنازل عن رياسته، وأن يعود إلى إفريقية ليموت هناك مسمومًا. وقد التقى الجيشان. وتحدثنا مصادر كثيرة عن نتيجة المعركة، دون أن يقدم لنا أى منها تاريخًا لها، محددًا ودقيقًا.

لقد هجم البربر بشراسة على جيش المرتضى، وفى اللحظة الحاسمة تخلى عنه خيران ومنذر، فتمزق جيشه شر ممزق، وهرب المرتضى نفسه إلى وادى آش، وفيها اغتالته عصابة مأجورة من المرية، على حين توزع القتل والهرب والأسر جيشه، وكان ابن حزم من بين الأسرى، وطبقًا لما يذكره فى كتابه «الطوق»، كان أثناء الأحداث قد تسلل إلى قرطبة سرا، فى شوال من عام ٤٠٩هـ – فبراير من عام ١٠١٩م للقيام باستطلاع الموقف السياسى، وجس نبض المدينة على التأكيد.

وبعد أن أفلت ابن حزم من الأسر البربرى انسحب إلى شاطبة، نفس المكان الذى تحرك منه جيش المرتضى التعيس فى ساعة نحس، وفى شاطبة، بين عامى ٤١٢ و ٤١٣هـ – ١٠٢٢م، فيما يحتمل، حرر كتابه «طوق الحمامة»، وله من العمر ٢٨ سنة، استجابة لرغبة صديق له من المرية، كتب إليه يقترح عليه أن يصنف له رسالة فى الحب، ثم جاءه فيما بعد شخصًا إلى شاطبة ليراه، ونزل معه فى داره مدة إقامته بها.

• بريق انتصار:

لم تطل فترة خلافة بنى حمود فى قرطبة، وكانت أشبه بجملة بين قوسين فى تاريخ الخلافة الطويل، على حد تعبير المستشرق الإسبانى غرسية غومث، فقد ضعف أمر القاسم بن حمود، واضطرب الحبل فى يده، وتسلط عليه البرابرة حتى احتقروه، وأراد هو أن يخلص من سلطانهم فأحل السودان مكانهم، واتخذ منهم جنده، وأخذ يضرب أولئك بهؤلاء، فتآمر البربر عليه، بمعاونة يحيى وإدريس ابنا أخيه، فترك قرطبة، وهرب إلى إشبيلية عام ٤١٢هـ – ١٠٢٢م. وتولى الخلافة مكانه يحيى الذى انصرف عنه السودان والبربر جميعًا، فآثر السلامة، وترك قرطبة كما تركها عمه من قبل، فى ٢١ من جمادى الآخر سنة ٤١٣هـ – ٩ من سبتمبر عام ١٠٢٣م، وبينما المحن تطّوق قرطبة من كل جانب، بدأت تحاول شيئًا بنَّاء إلى أقصى حد، وجديدًا لم تألفه العاصمة من قبل، إذا لم نقل ثوريًا فى عالم السياسة المضطرب: أن ينتخب الشعب الخليفة فى المسجد الجامع، طبقًا لأسمى قواعد الشريعة الإسلامية وأدقها، أن يجىء الخليفة مختارًا لا وارثًا، ولا معينًا من سابقه، ولا مفروضًا بقوة السلاح. وهو تقليد يحدث للمرة الأولى منذ قيام دولة بنى أمية فى الأندلس.

لم تكن سلطة الخلافة الفعلية فى هذه اللحظة تتجاوز أحواز المدينة، وماذا يهم؟... ألم يحدث شىء شبيه بهذا، حين انحصر

سلطان العاصمة فى عصر الأمير عبدالله، وتحمل القرطبيون المهانة، فى انتظار أيام مجيدة، جعلت من قرطبة مصدر القوة والجلال والثقافة، على أيام عبد الرحمن الناصر، والحكم الثانى، والمنصور ابن أبى عامر؟. إن الأمل آخر شىء يمكن أن يفقده الإنسان العظيم.

وفى ١٦ من رمضان سنة ٤١٤هـ - ٢ من ديسمبر عام ١٠٢٣م، وقع الاختيار على واحد من بين الأمراء الأمويين الثلاثة: سليمان ابن المرتضى، وعبد الرحمن بن هشام، وعلى بن محمد العراقى، ولم يكن أحد بدءًا يفكر فيه على الإطلاق، اختاروا عبد الرحمن بن هشام، خامس الخلفاء الذين حملوا هذا الاسم؛ وتلقب بالمستظهر. وكان الخليفة الجديد على حداثة سنة؛ كما يصفه ابن حيان: «لبقًا ذكيا؛ يقظًا لوذعيا؛ لبيبًا أديبًا؛ حسن الكلام؛ جيد القريحة، مليح العبارة؛ يتصرف فيما شاءه من الخطابة؛ بديهة وروية؛ ويصوغ قطعًا من الشعر مستجادة، لم يكن فى بيته يومئذ أبرع منه منزلة، وكان قد نَقَّلْته المخاوف، وتقاذفت به الأسفار، فتحنّك وتخّرج وتمّرن فيها».

كان المستظهر يطمح أن يعيد إلى الخلافة بهاءها، وإلى قرطبة أمجادها، فأحاط نفسه بخيرة الأدباء على أيامه، وجلهم ينتمون إلى جماعة المثقفين الذين أشرنا إليهم من قبل. فكان بينهم ابن حزم، وابن عمه أبو المغيرة عبد الوهاب، وأبو عامر بن شهيد،

والشاعر البارع حسان بن مالك، والكاتب الرائع ابن برد. ولكن هذا الاتجاه أحقد عليه الشيوخ، ومحترفى السياسة، والمنتفعين بالمصائب، فمضوا يؤلبون عليه العامة، ويثيرون الفتن والدسائس بين الخاصة، ويبيعون الأحلام للطامعين، فلم يستطع أن يبقى فى الحكم أكثر من شهر ونصف، فقد أعدم فى ٣ من ذى القعدة سنة ٤١٤هـ – ١٧ من يناير عام ١٠٢٤م، وبذهاب الخليفة استقر ابن حزم فى السجن من جديد.

• خيبة أمل، وتغيير الطريق:

فى هذه اللحظة أشرق ذكاء ابن حزم وضيئًا، ليقنعه بأن العالم السياسى الذى ينتمى إليه، وناضل من أجله، انتهى تمامًا، مات ولا سبيل إلى بعثه، وقد احتاجت قرطبة إلى سبعة أعوام كاملة بعده لتقتنع بالنتيجة نفسها. وعندما خرج من السجن، والإحساس بالخيبة يملأ داخله، قرر أن يتخلى بطريقة نهائية وحاسمة عن ممارسة السياسة، فنبذ الوزارة واطرحها اختيارًا، وأقبل على قراءة العلوم، وتقييد الآثار، من شريعة وفلسفة وتوحيد وتاريخ، وظل موصول السبب بها حتى فى أحلك لحظات حياته، رجل دولة أو مغامرًا أو لاجئًا، «ونال من ذلك ما لم ينل أحد قبله بالأندلس»، والشىء الوحيد الذى لم يتخل عنه، وما كان بوسعه أن يفعل لأنه يحمله فى دمه، هو روح المخالفة والأصالة والجرأة، ورافقت

حياته دائمًا. لم يستطع أن يكون تقليديًا مالكى المذهب، ورأى كبار علمائه فى مرات كثيرة، كما هو شأن كبار الفقهاء ورجال الدين عادة، وفى كل مكان إلا ما ندر، يتحالفون مع السلطان، ويلتقون مع كبار الموظفين، ويغّيرون مواقفهم على النحو الذى يرضى الحكام، فأصبح المذهب المالكى بفضلهم هو السائد فى قرطبة، تعليما وشعائر وفتوى. وحوّم حول المذهب الشافعى قليلاً، وأقام عليه زمنا، ورآه أكثر توفيقًا وتعادلا، رغم قلة أتباعه، ومناهضة الدولة لأوليائه، ثم انصرف عنه فقد وجده يلفظ أنفاسه، وانتهى به المطاف فقيهًا ظاهريًا، قبل عام ٤١٩هـ - ١٠٢٩م، وكانت له من قبل صلات بالمذهب، ورفقة مع السائرين على دربه، وصلات أدبية، على الأقل، مع علمائه.

وفى مسجد قرطبة الجامع، إلى جوار أستاذه الظاهرى، أبى الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت الشنترينى، أخذا يدرِّسان أصول المذهب الظاهرى مع آخر أيام الخلافة، وقد أصبحت هذه شكلا مهلهلا، حوالى أعوام ٤١٨ - ٤٢٠هـ - ١٠٢٧ - ١٠٢٩م. وقد اتهم علماء المالكية، والجمهور من ورائهم، الأستاذين الجليلين بأنهما خطر على العقيدة، ويفسدان تديّن الشعب، فاستشار صاحب المدينة فى أمرهما هشامًا الثالث، آخر خليفة أموى، وربما قبل أن يدخل المدينة ليمارس سلطاته، وتقرر منعهما من تدريس

المذهب الظاهرى. ومن تلك اللحظة أصبح ابن حزم عالمًا ثائرًا، غير مرغوب فيه، يواجه وحيدا التخلّف والتقليد والجمود، وتزيف نصوص الشريعة لخدمة الأقوياء، وبدأ يبشر بفكر إسلامى راق، وفلسفة مستقيمة، ولم تفتر حميته أبدا، رغم كل المصاعب الجمة التى تعرض لها. ومع هذه المرحلة الجديدة من حياته سوف تقل معلوماتنا عنه كثيرًا، وسوف تصبح كتبه مصدرنا الوحيد لكتابة تاريخ حياته فيها.

• جهد ثقافى عملاق:

حتى ولو أخذنا فى الاعتبار أنه عمرّ نسبيًّا، فإن ما قام به فى حقل الدراسات الإسلامية كان فردًا وعملاقًا ومتميزًا، ويقول عبد الواحد المراكشى، فى كتابه «المعجب فى أخبار المغرب»، وألفه فى ظل الموحدين وهم، يناهضون المالكية، فجاءت أخباره بعيدة عن التعصب، قريبة إلى الواقع، إن ابن حزم كان أكثر أهل الإسلام تصنيفا، وإنه «صنف فى الفقه والحديث والأصول والنحل والملل، وغير ذلك من التاريخ وكتب الأدب، والرد على المخالفين له، نحوًا من أربعمائة مجلد، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة، وهذا شىء ما علمناه لأحد ممن كان فى مدة الإسلام قبله، إلا لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى»، وبعض هذه المجلدات كما

نعرف رسائل صغيرة، ولو أن ذلك لا يقلل من جهد المؤلف؛ ولا من قيمة الرسالة. ومحال أن نقف فى هذه العجالة عند هذه المؤلفات محللين؛ ونحيل الراغبين فى هذا إلى الدراسة القيمة التى قام بها ميجيل أسين بلاثيوس لهذه المؤلفات؛ فى كتابه العظيم عن «ابن حزم القرطبى»؛ وقد نقلناه إلى اللغة العربية؛ وسوف يصدر عن قريب. ولقد أرى؛ ويرى غيرى معى؛ أن الأمر رغم ذلك يحتاج؛ على المدى البعيد؛ إلى جهد آخر متأن؛ فى ضوء ما عثر عليه من مخطوطات جديدة؛ وما نشر له أخيرًا من تراث.

يكفى أن نقف هنا عند كتابه «طوق الحمامة»، وهو أروع كتاب درس الحبّ فى العصر الوسيط، فى الشرق والغرب، فى العالمين الإسلامى والمسيحى، تتبع أطواره، وحلل عناصره، وجمع فيه بين الفكرة المفلسفة والواقع التاريخى، وواجه قضاياه فى وضوح وصراحة، ولمن شاء المزيد أن يعود إلى كتابنا: «دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة».

ثم كتابه «الفصل فى الملل والأهواء والنحل»، وهو تاريخ نقدى للأديان والفرق والمذاهب؛ غنى بمادته وأفكاره، وحاول فيه ابن حزم أن يوفق بين العقل والعقيدة، فسبق ابن رشد فى ذلك بقرن من الزمان، وهو يعرض لشتى مذاهب الفكر البشرى فى موضوع الدين، من الإلحاد المطلق لا يؤمن أصحابه بشىء، إلى إيمان العوام

يصدقون كل شيء، ويرى أن خير العقيدة ما أخذ طريقًا وسطًا بين العقل والنقل، مما يطابق تمام المطابقة المذهب الظاهرى الذى كان هو نفسه عليه.

وخلف لنا ابن حزم مادة طيبة فى التاريخ، يهمنا أن نشير من بينها بخاصة إلى كتاب «جمهرة أنساب العرب»، وهو أحسن قائمة بأنساب العرب فى الغرب الإسلامى، ولمن يدرسون تاريخ الإسلام فى المشرق والأندلس. وكتاب «نقط العروس»، وهو رسالة موجزة عن تاريخ الخلفاء والحكام فى المشرق والأندلس، وفيما يبدو كان نقاطًا وضعها ابن حزم لينشئ حولها كتابًا مطولا. وله رسالة فى «بيان فضل الأندلس وذكر علمائه»، وجاء المقرى بنصها كاملاً فى «نفخ الطيب»، وحررها ابن حزم ردًا على رسالة تلقاها ابن عمه، أبو المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن حزم، من أديب القيروان ابن الربيب التميمى، أبو على الحسن ابن محمد بن أحمد، وربما كانت الأولى فى تاريخ الأدب الأندلسى، وأول محاولة للإشادة بأمجاده، ورغم قصرها جاءت شاملة بما ألف الأندلسيون فى صنوف الآداب والعلوم.

ويجىء كتابه «الأخلاق والسير» قمة بينها، فى مادته، وأفكاره، ومنهجه، وهو الذى نقدمه إلى القارئ محققا الآن، ولأهميته سوف نعرض له فى فصل خاص.

ولابن حزم مؤلفات أخرى، فلسفية وفقهية أو فى علم الكلام؛ أو التاريخ، أو الأدب الخالص، وأحيل القارئ بشأنها إلى الكتاب الذى أشرت إليه فى بداية الكلام.

• فى مواجهة العواصف:

أنجز ابن حزم هذا العمل العملاق وهو يواجه أعتى العواصف والأعاصير، هدفًا لكل ألوان الحقد والكراهية والتآمر؛ اضطهده صغار ملوك الطوائف، وكلهم صغار، واتهمه رجال الدين بالمروق، فلم تلن له عريكة، ولا وهن منه عزم، وبقى وحده، ومعه قلة مؤمنة صابرة من أصحابه وتلاميذه، يواجهون المحنة فى صلابة؛ جباههم عالية، وقاماتهم مرتفعة، يحركون الأفكار الجامدة، وينيرون العقول المظلمة، ويهزّون مسلمات كثيرة متخلفة؛ ومن هنا فإن الجانب الأكبر من مؤلفاته الفقهية والعقائدية، وُلِدَ كلاما يقال، جدلاً عنيفًا مع خصومه، وإدانة صريحة لهم، وكانوا يتمتعون برعاية الدولة وحمايتها.

كان ابن حزم مجادلا لا يكل، جاد الكلمة، عنيف المناظرة، واحتفظ جانب كبير من إبداعه بحرارة الحوار وحدته، وكان فى حيويته هذه، فى القرن الحادى عشر، «مدرسية Scolastique» حية ومتوهجة، تفوق «مدرسية» المسيحيين فى أوربا، وقد أفرغوا الحوار من محتواه، ودفعوا به جملا باردة، لا روح فيها، مماحكة

خواء، ورغم أنها بداية من عصرها الثانى، مع الدم الجديد الذى تدفق إليها من الفلسفة الإسلامية عبر الأندلس، ومع توماس الأكوينى، شهدت فترة ازدهار وحياة، إلا أنها كانت تهم العلماء وحدهم، وقليلا ما تتجاوز آثارها قاعة البحث، أما فى قرطبة القرن الحادى عشر، فكانت تهم الجمهور كله، ويتبع صداها شغوفًا. لقد تميزت «مدرسية» قرطبة، بشدة الإيقاع، وأصالة المحتوى، وحرية المنهج، والدفء والتجدد والبساطة، ومشاركة عامة الناس على نحو ما.

لقد عاين ابن حزم من ألوان الظلم ما أنضب فى أعماقه معين الرقة واللين، وشاهد من مساءات السياسة ما نفّره منها، وأوذى فى نفسه وكرامته، فاعتزل الدنيا محاصرًا ووحيدا، فى قريته منت لشم، من بادية ولبة، يواصل رسالته بنفس القوة التى بدأ بها حياته، شابًا واعدًا ومناضلا عنيدًا، «يبث علمه فيمن ينتابه بباديته تلك، من عامة المقتبسين منه، ومن أصاغر الطلبة الذين لا يخشون فيه الملامة، يحدثهم ويفقههم ويدارسهم، ولا يدع المثابرة على العلم؛ والمواظبة على التأليف، والإكثار من التصنيف، حتى كمل من مصنفاته فى فنون العلم وقر بعير. لم يَعْدُ أكثرها عتبة بابه، لتزهيد الفقهاء طلاب العلم فيها؛ حتى أحرق بعضها بإشبيلية، ومزقت علانية، ولا يزيد مؤلفها ذلك إلا بصيرة فى نشرها، وجدالاً للمعاند فيها، إلى أن مضى لسبيله».

فى رسالة ابن حزم «فضائل أهل الأندلس» فقرة، كأنما عنى بها نفسه، رغم أنه كتب الرسالة فى زمن مبكر نسبيًّا، ولا يستطيع الدارس لحياته أن يمر بها دون أن يقف عندها. يقول: «أزهد الناس فى عالم أهله، وقرأت فى الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال: «لا يفقد النبى حرمته إلا فى بلده» .. «ولا سيما أندلسنا، فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم، الماهر منهم، واستقلالهم كثير ما يأتى به، واستهجانهم حسناته، وتتبعهم سقطاته وعثراته، وأكثر ذلك مدة حياته، بأضعاف ما فى سائر البلاد» إن أجاد قالوا: سارق مغير، ومنتحل مدع. وإن توسط قالوا: متى كان هذا؟ ومتى تعلم؟ وفى أى زمان قرأ؟ ولأمه الهبل»!.

«وبعد ذلك إنْ ولجت به الأقدار أحد طريقين، إما شفوفًا بائنًا يعليه على نظرائه، أو سلوكًا فى غير السبيل التى عادوها، فهناك حمى الوطيس على البائس، وصار غرضًا للأقوال، وهدفًا للمطالب، ونصبًا للتسبب إليه، ونهبًا للألسنة وعرضة للتطرق إلى عرضه، وربما نُحِلَ ما لم يقل، وطُوِّقَ ما لم يتقلد، وأُلْحِقَ به ما لم يفه به، ولا اعتقده قلبه، وبالحرى وهو السابق المبرّز، إن لم يتعلق من السلطان بخط، أن يسلم من المتالف، وينجو من المخالف. فإن تعرض لتأليف غُمِزَ ولُمز، وتعرض وهمز، واشتط عليه، وعُظِّمَ يسير خطبه، واستشنع هين سقطه، وذهبت محاسنه، وسترت

فضائله، وهتف ونودى بما أغفل، فتنكسر لذلك همته، وتكلّ نفسه، وتبرد حميته. وهكذا عندنا نصيب من ابتدأ يحوك شعرا، أو يعمل رياسة، فإنه لا يفلت من هذه الحبائل، ولا يتخلص من هذه النصب إلا الناهض الفائت، والمطفف المستولى على الأمد».

• محافظون ومجددون:

هذا الموقف من رجل كان أستاذ نفسه، حاد الذكاء، موسوعى الثقافة، صلب العزيمة بلا حدود، عنيف المواجهة دون مثال، لعب دورًا هاما فى تطوير الفكر الأندلسى، وزعزعة المسلمات الأساسية للثقافة السائدة، والرسمية فى الوقت ذاته، لقد احتضن الأندلس حتى القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر الميلادى، لونين من الثقافة، يسيران فى خطين متوازين دون أن يلتقيا: المحافظون وهم الكثرة الغالبة، والمتحررون. وكان المحافظون وأعنى بهم علماء المذهب المالكى السائد فى الأندلس، وقفوا بنشاطهم الثقافى عند حد التشريع العملى، لا يتجاوزونه إلى مشاكل الثقافة المتصلة بالعقيدة نفسها، واتهموا كل من يتكلم فى المنطق بالزيغ، وكل تفكير عقلى فى مسائل الدين بالزندقة. وكان الاتجاه الثانى يتحرك بين قلة مثقفة، ولكنها لا تطمح، ولا ترى لها مصلحة، فى مواجهة المحافظين أو الدخول معهم فى خصام، وارتضت لنفسها أن تقف منهم ساخرة ومتجاهلة.

وقد ظل المالكية حتى القرن السادس الهجرى يقاومون الأشعرية، ولكنهم تركوا الأرسطوطالية تتحرك فى حرية، وقد وصلنا كتاب «تقويم الذهن» لأبى الصلت الدانى، أمية بن عبد العزيز، المتوفى عام ٥٢٨هـ – ١١٣٤م، وهو رسالة فى المنطق، توجز آراء أرسطو. وكان ابن حزم علمًا فردًا، واتجاهًا متميزًا، ولم يكن مالكيًا ولا أشعريًّا، ولا زاهدًا ولا أرسطوطاليسيا، بل واتهمه ابن حيان بأنه لم يفهم أرسطو، ومحدود الأتباع كظاهرى، يبذل جهدًا فائق النظير، لكى يقيم جسرًا بين العقيدة والمنطق.

ومهما يكن من أمر، فقد نضجت شخصية ابن حزم، واستكمل عدته، ومكنت له الأحداث من صقل مواهبه، وزادته اعتدادًا بنفسه، فمضى طريقه، يتمرد على التقاليد القائمة، ويثور على الجمود الدينى، ويهاجم المذاهب المختلفة، فقهية وكلامية، مسلمين وغير مسلمين، مهاجمة عنيفة متصلة، كلمّا أتيحت له الفرصة، بالمناظرة فى المجالس، وبتأليف الكتب والرسائل، واتسم جدله بقوة الحجة، ونصاعة البيان، وقوة الدليل، ولكنه وقد ملك لسانًا ذريًا، مسلّحا باللغة المواتية، حتى قال عنه الصوفى الأندلسى ابن العريف: «لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان»، لا يقف عند البيان والبرهان والإقناع، وإنما يحتد فى أحايين كثيرة، فيتجاوزها إلى التسفيه والتكفير والتفسيق. وهى

حدة تعود فى جانب منها إلى عصبية مزاجه، واعتلال صحته طفلاً، ولا أراها مما يعاب عليه جملة، فهى تأتى منه، غالبًا، فى موضعها، وقولة الحق تحتاج دائمًا من المؤمن بها إلى صوت مرتفع، لتوقظ نائما، وتنبه غافلاً. يقول عن نفسه:

«ولقد أصابنى علة شديدة، ولّدت على ربوًا فى الطحال شديدًا، فولّد ذلك على من الضجر، وضيق الخلق، وقلة الصبر والنزق، أمرًا حاسبت نفسى فيه، إذ أنكرت تبدل خلقى، واشتد عجبى من مفارقتى لطبعى، وصح عندى أن الطحال موضع الفرح إذا فسد تولد ضده».

وهكذا انصدع ما بين ابن حزم وعلماء عصره، وكان منه ما أسماه ابن حيان «أنه يجهل سياسة العلم»، وجعلها مصدر معظم أخطائه. ونحن نكتب عن حياة عظيم، مرت على وفاته أكثر من ألف عام، وعاش فى بيئة جد مختلفة، يستحيل علينا أن نجزم، أو حتى نرجح، ما كان عليه أن يتبعه من سياسة فى ملاقاة معاصريه.

• **مناظرات وملاحقة:**

لا نعرف، كما أشرنا من قبل، شيئًا دقيقًا وموثقًا عن الأعوام الأخيرة من حياة ابن حزم. نعم، نعرف أنه أصبح مثقفًا عنيدًا، أخا سفرٍ، جوّابَ آفاق، ينتقل بين دول الطوائف المختلفة، يحاور العلماء ويجادل الفقهاء، ويناظر أهل الكتاب، وفى عنف دائمًا، كما

هى عادته. صنع ذلك فى قرطبة والمرية وطلبيرة وميورقة، وربما فى مدن أخرى لم يصلنا خبرها. وفى ميورقة، وجاءها لاجئًا بعد عام ٤٣٠هـ – ١٠٣٩م، وجد الحماية والتقدير فى شخص عاملها الوزير الكاتب أبى العباس، أحمد بن رشيق، وكان مولى لبنى شهيد، وتأدّب فى قرطبة. ووجد أيضًا مزاحمة شديدة فى شخص قرطبى آخر مثله، أصغرمنه سنًا: أبو الوليد الباجى، من كبار فقهاء المالكية، وكان قد رحل إلى المشرق، ولبث فى رحلته هذه ثلاثة عشرة عامًا، لقى فيها كبار العلماءفى الفقة والحديث وعلم الكلام، «فبرع فى الحديث وعلله ورجاله، وفى الفقه وغوامضه وخلافه، وفى الكلام ومضايقه»، وكان إلى هذا، كابن حزم، أديبًا يقول الشعر، ويحسن تدبيج الكلام.

ولما عاد من رحلته تلك وجد ابنَ حزم مجادلا، وصاحب مذهب متميز، تسد شهرته الأفق، وخصومه من الفقهاء وغيرهم ضائقون به أشد الضيق، وعاجزون عن ملاقاته أبلغ العجز، ففرحوا بمقدم أبى الوليد الباجى إلى ميورقة، وأثاروه على ابن حزم، رغم ما بين الرجلين من إعجاب متبادل. وانعقدت بينهما المناظرات فى الفقه، وفى علم الكلام أيضًا، وكان أبو الوليد مقدم الأشاعرة فى الأندلس، وابن حزم خصما لدودًا لهم، وليس ثمة شك فى أن ابن حزم وجد فى مناظره لونًا جديدًا من العلماء لم يعهده من قبل، وسوف يعترف فى رسالته عن «فضائل أهل الأندلس»: «لو لم يكن لأصحاب المذهب المالكى، بعد عبد الوهاب، إلا مثل أبى الوليد لكفاهم».

لم يتوقف الذين عجزوا يومًا عن مواجهة ابن حزم فى ساحة الجدل والمناظرة عن الكيد له، والدس عليه، عند سلطات الجزيرة، فلم يجد بدًا من تركها، وما من أحد فى ملوك الطوائف يرغب فى أن يستضيف بأرضه عالمًا مزعجًا، لا بسبب آرائه الدينية فحسب، وإنما لاتجاهاته السياسية أيضا، فقد ظل ابن حزم متمسكًا بشرعية الخلافة الأموية، لم يتزحزح عن رأيه أبدًا، حتى عندما أصبحت نظرية مجردة، لا صلة لها بالواقع، ولا مطمح أن تعود، ولكنه لم يشارك فى اللعبة السياسية المعقدة التى كانت تجرى على أيامه هذه، ولم يحتضن فكر أية جماعة معارضة، وفى رسالته «التلخيص لوجوه التخليص»، وجاءت ردًا عن سائل يطلب الرأى عنده فى قضايا كثيرة، سؤال عن الموقف الذى يجب على المرء أن يتبعه «من أمر هذه الفتنة، وملابسة الناس بها، مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض»، كانت إجابة ابن حزم: «... فالمخلص لنا فيها الإمساك للألسنة جملة واحدة إلا عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وذم جميعهم. فمن عجز منا عن ذلك رجوت أن تكون التقية تسعه». ولقد ذم ملوك الطوائف جميعهم فى رسالته هذه، وحمل عليهم فى غير هوادة: «وعمدة ذلك أنّ كل مدبِّر مدينة أو حصن فى شىء من أندلسنا هذه، أولها عن آخرها، محارب لله تعالى ورسوله وساعٍ فى الأرض بفساد، والذى ترونه عينًا من شنهم

الغارات على أموال المسلمين من الرعية التى تكون فى ملك من ضارّهم، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التى يقضون على أهلها، ضاربون المكوس والجزية على رقاب المسلمين، مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين فى أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله». ونحن «نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى إلى بلادهم»، «وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعا، فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس، لعن الله جميعهم، وسلط عليهم من سيوفه».

ولم يرحم طائفة من الفقهاء على أيامه، وعلى أيامنا أيضا!. فتاواهم مُعَدَّة، وأقلامهم مشرعة، يدعمون بها الطغاة خوفًا، ويبررون لهم المظالم طمعًا، ويسبحون بحمد الحاكم ملقًا، ويشغلون عامة الناس عن الجاد من أمور الدنيا، بغير العاجل من شئون الآخرة، «فلا تغالطوا أنفسكم ولا يغرنكم الفساق والمتتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع، المزينون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم».

وأقسى هجوم خص به ملكًا من الطوائف، كان موجهًا ضد أمير غرناطة، باديس بن حبوس الذكى الدموى الداهية، رأس البربر،

وخليفة زاوى بن حبوس الذى قضى على محاولة المرتضى، على نحو ما أشرنا، وأخذ ابن حزم سجينًا، ذلك أن باديس جمع فساد بقية ملوك الطوائف وزاد عليه بأن اتخذ وزيره الأول، ومستشاره الأمين، من اليهود، ابن النغريلة الشهير الذى مكن لأبناء قومه من رقاب المسلمين، فسيطروا بعون منه على الاقتصاد والإدارة، ثم أخذته العزة بالإثم «فألف كتابًا قصد فيه، بزعمه، إلى إبانه تناقض كلام الله عز وجل فى القرآن اغترارًا بالله تعالى أولا، ثم بملك ضعفة ثانيًا، واستخفافًا بأهل الدين بدءًا، ثم بأهل الرياسة فى مجانة عَوْدًا». وقد رد عليه ابن حزم ردا قويًا وعنيفًا فى رسالته: «الرد على ابن النغريلة اليهودى»، فنقض آراءه، وفند حججه، وبين مساوىء قومه، وأراد لصوته أن يكون عاليًا وقاسيًا ليبلغ ملك غرناطة، ودون أن يذكره بالاسم حمل عليه ناقدًا ومهددًا ومستنهضا: «إن أملى لقوىّ، وإن رجائى مُسْتحكم، فى أن يكون الله تعالى يُسلِّط على من قرّب اليهود وأدناهم، وجعلهم بطانة وخاصة، ما سلط على اليهود، وهو يسمع كلام الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥١]. وإن من فعل ذلك لحرىّ أن يشاركهم فيما أوعد الله تعالى فى توارتهم، فى السفر

الخامس، إذ يقول لهم تعالى: «ستأتيكم، وستأتى عليكم، هذه اللعنة التى أصف لكم، فتكونون ملعونين فى مدائنكم وفدادينكم، وتُلْعَنُ أجدادكم وبقاياكم، ويكون نسلكم ملعونًا، وتكون اللعنة على الداخل منكم والخارج».

هل قنع ابن حزم بهجومه الفكرى؟.

فى كتاب «الذخيرة» لابن بسام، فقرة مثيرة، نقلها عن المؤرخ القرطبى العظيم ابن حيان، جاءت خلال حديثه عن الهزيمة المريعة التى أوقعها باديس ابن حبوس، أمير غرناطة، بزهير الصقلبى أمير المرية، وفيها أن باديس ظهر «على قوم من وجوه رجال زهير، فعجل على الفرسان والقواد بالقتل، واشتمل الأسار على حملة الأقلام، وفيهم وزيره التيّاه أحمد بن عباس الجار لهذه الحادثة، قيد إلى باديس وصدره وصدور أصحابه تغلى عليه، بما أوقد من هذه النائرة، فأمر بحبسه ليستخرج منه مالاً، وشفاؤه الولوغ فى دمه، وعجلّ عليه بعد دون أصحابه من حملة الأقلام، عفّ باديس عن دمائهم من بين أصحاب السيوف إلا من أصيب منهم فى الحرب، وأطلق ابن حزم والباجى وغيرهما». ويرى غرسية غومث أن الإشارة هنا تنصرف إلى ابن حزم صاحبنا، وقد ارتبط بالمرية دائمًا، ولعله أراد أن يثأر لأسره الأول فوقع فى الأسر الثانى، وكان برفقة أبى الوليد الباجى، مناظره اللدود

والعنيد فى مناظرات ميورقة. بينما يرى الأستاذ الجليل، الدكتور طه الحاجرى، فى كتابه «ابن حزم: صورة أندلسية» وقد وقع على النص قبل أن تقع عليه عين المستشرق الإسبانى، والتفت إليه، أنها تنصرف إلى أبى المغيرة.

كان عداء ابن حزم لباديس أمير غرناطة، ورأس البربر فى الأندلس، عنيفًا وجادًا وله ما يبرره، ولكنه لم يلق به، وهو رجل مبدأ لا يحيد عنه، فى أحضان الحزب المعارض لباديس، وهم بنو عباد فى إشبيلية، مع ما كانوا عليه من سخاء وترف بعامة، ومع رجال الفكر بخاصة، وكانوا، بحق، قادة الجانب العربى فى معركة التزاحم بين الأجناس المختلفة، وسادة المنطقة التى استقر فيها بيت آل حزم من قديم، وبها تراثهم وديارهم، ورغم ذلك كله، أدار لهم ابن حزم ظهره، إنه صلب العقيدة، طاهر السيرة، يرى الخلافة شرعة، وفى بنى أمية شرعا، لا يساوم ولا يتراجع ولا يتأول، ولا يرتضى أنصاف الحلول. وكان المعتضد أمير إشبيلية، وحكم من ١٠٤٢م إلى ١٠٦٩م، كقرينه أمير غرناطة، دمويًّا قاسيا، يأخذ بالظنة، ويخفر الذمة، ويبلغ فى المثلة، فلم «يثبت له قائم ولا حصيد، ولا سلم عليه قريب ولا بعيد»، ولابد أن رأى ابن حزم فيه كان كرأيه فى باديس. ونجهل التاريخ أو الظروف التى أمر فيها أمير إشبيلية بتمزيق كتب ابن حزم، وحرقها علانية، وفيها

نظم ابن حزم أبياته الشهيرة عندما بلغه أمرها، والتقطها كل الذين أرخوا له:

دعونَى من إحراقِ رقٍّ وكاغدٍ
وقولوا بعلم كىْ يرى الناس مَن يدرى
فإن تحرقوا القرطاسَ لم تحرقوا الذى
تضمّنه القرطاسُ، بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلتْ ركائبى
وينزل إنْ أنزلْ ويُدفن فى قبرى

• هزيمة دون كيشوته:

وحيدًا ضد الجميع، وضد كل شىء، وأشد مرارة وتشاؤمًا من مواطنة كيشوته الإسبانى، بطل رواية سرفانتيس الشهيرة، وعاش على الأرض نفسها، بعده بخمسة قرون، وذهب كلاهما ضحية أحلامه.

وقد حدد لنا ابن حزم منهجه فى «الأخلاق والسير فى مداواة النفوس»: «لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها، وليس ذلك إلا فى ذات الله عز وجل، وفى دعاء إلى حق، وفى حماية الحريم، وفى دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالى، وفى نصر مظلوم، وباذل

نفسه فى عرض الدنيا كبائع الياقوت بالحصى». و «إنى لا أبالى فيما أعتقده حقًا من مخالفة من خالفته، ولو أنهم جميع من على ظهر الأرض، وإنى لا أبالى موافقة أهل بلادى فى كثير من زيهم الذى قد تعودوه لغير معنى، فهذه الخصلة عندى من أكبر فضائلى التى لا مثيل لها».

لقد دافع عن الإسلام الحق بعنف، عقيدة وسلوكًا ومهجًا فى الحياة، ودعا إلى سلامه الباطن، وخلوص النية، واستقامة العمل، وناضل عما يؤمن به دون هوادة، وفى كل مكان، وأثار على أعدائه حربًا شعواء متصلة.

دافع عن الإسلام فى وطنه وبين أهله، وبعيدًا عن خارج حدوده، بالموعظة الناصحة، والشروح الكاشفة، والمواجهة الحاسمة عند الضرورة، وحين نظم نقفور فوكاس إمبراطور بيزنطة، مزهوًا بانتصاراته، قصيدة ذم فيها الإسلام، وبعثها إلى الخليفة المطيع فى بغداد، تولى ابن حزم الرد عليه، بقصيدة أبان فيها فضائل الإسلام، وكشف عن تناقضات المسيحية، وأرسلها إليه، وأورد لنا السبكى نصها فى كتابه «طبقات الشافعية».

وظل حتى آخر رمق من حياته يدافع عن شرعية الخلافة الأموية فى الأندلس، وقد اختفت إلى الأبد، وشديد القناعة بأن «نوار الفتنة لا يعقد» وكان يحس بأنه لم يخلق لعصر الطوائف، وظل يبشر بمذهبه

الظاهرى وسط المتاعب والصعاب، وفى مواجهة الجميع، ويقاوم نفوذ اليهود وسيطرتهم على الاقتصاد والسياسة، على نحو ما فعل مواطنه أبو إسحاق الإلبيرى، وكان شاعرًا وفقيها، ودفع بقصيدته الرائعة مسلمى غرناطة موطنه، إلى الثورة على مظالم يهودها، فانتقموا منهم، وأتوا على نفوذهم، فى يوم عاصف مريع[1].

وانتهى المطاف بابن حزم وحيدا، فكرًا وإحساسًا ورفقة، شبحا لعصر مضى، وكان عليه أن ينسحب إلى ديارهم الأولى فى قرية منت لشم، من وديان ولبة، فى تاريخ نجهله لسوء الحظ، رفقة أولاده فحسب، ولم يحدثنا عن أسرته القريبة أبدا، فى كل ما كتب، ومع عدد قليل للغاية من تلاميذه الأوفياء.

أية مشاعر حزينة كانت تغمره، وهو يعود إلى قريته فى الريف مهزوما، مغلوبًا على أمره، قريته التى خرج منها جده قبل جيلين فقط، مغمورا ينتسب فى أسرة اعتنقت الإسلام من قريب، وصنع لها والده مجدًا مؤثلا، يومها كتب فى «الأخلاق والسير»: «أشبه ما رأيت بالدنيا خيال الظل، وهى تماثيل مركبة على مطحنة خشب

---

(١) انظر:

• اميليو غرسية غومث: مع شعراء الأندلس والمتنبى، ترجمة د. الطاهر أحمد مكى، ص ٨٩ وما بعدها، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٨م.

• د. الطاهر أحمد مكى: دراسات أندلسية، ص ٥٨ وما بعدها، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠م.

تدار بسرعة فتغيب طائفة وتبدو أخرى» ولم يتوقف هناك عن العمل، مضى فى قريته يؤلف كتبه، ويحرر رسائله، ولو أنها على حد تعبير ابن حيان: «لا تتجاوز عتبة داره»، وأوضحها كتابه «الأخلاق والسير فى مداواة النفوس». وهو سلسلة من الاعترافات سجلها وله من العمر ٦٩ عامًا شمسيًّا، أو ٧٢ عامًا قمريًّا، وتوفى برحمة الله فى ٢٨ من شعبان ٤٥٦هـ – ١٥ من يوليو ١٠٦٣م:

كـأنّك بـالـزوّار لـى قـد تنـاذروا
وقيل لهـم أودَى علـىٌّ بـن أحـمد
فيـاربَّ محـزونٍ هنـاك وضـاحكٍ
وكـم أدمـعٍ تـذرى وخـدٍّ مخـدّد
عفـا الله عنـى يـوم أرحـلُ ظـاعنًا
عن الأهل محمولاً إلى بطنِ ملحد
وأتركُ مـا قـد كنـت مغتبطًا بـه
وألقـى الـذى آنستُ دهرًا بمرصد
فـواراحتـى إن كـان زادى مقـدَّما
ويـا نَصَبى إنْ كنـتُ لـم أتـزوّد

• تلاقى النقيضين:

درج الباحثون على تقسيم حياة ابن حزم الأدبية إلى مرحلتين هما، فيما يرى أسين بلاثيوس: «واحدة حتى الثلاثين من عمره، والأخرى منهما حتى موته». وفى الأولى وقف حياته على الأدب والسياسة، وفى الثانية ترك السياسة ليتفرغ لدراسة الشريعة والعقائد. وهى تفرقة يمكن أن تكون مقبولة كتبسيط نظرى فحسب، لأن المرحلتين تعايشا واقعًا، على امتداد حياته، ولهذا ألقينا على حياة ابن حزم كلها نظرة شاملة، ودون ذلك ليس ثمة مجال لالتقاط نفسيته شابًّا، ومعرفة الكثير من إشارات كتاب «الأخلاق والسير» وإدراك عدد من فقراته يتوقف على الإلمام بها.

ويرى غرسية غومث، ودون أن أمضى معه إلى نهاية الطريق، أن تلاقى الأضداد فى شخصية ابن حزم، وازدواجية الصوت عنده، وتجاور اللطف والخشونة، والرقة والعنف، والنبل والعامية، دون أن يذوب أحدهما فى الآخر، يجعل منه شخصية محببة لنا (الضمير يعود على الإسبان)، لأنها تضعه إلى جوار عدد من قمم الأدب الإسبانى فى عصره الذهبى، أولئك الذين يتجلى فيهم مزاج الشخصية الإيبرية واضحا، مثل الشاعر القرطبى جونجرة Gongora (١٥٦١م – ١٦٢٧م)، والموسوعى كبيدو Quevedo (١٥٨٠م – ١٦٤٥م)، ونستطيع أن نذكر آخرين كثيرين، ليس بينهم ثوفانتيس مؤلف الرواية العالمية الخالدة دون

كيخوته، وأعطانا المثل رائعًا، ولا يتكرر، كيف تلتقى متناقضات سلالتنا الجذرية فى تركيب إنسانى ومفهوم، حلو وحزين، وإلى ذلك، وفى خط مواز له، يمكن أن نضيف الشموخ الإسبانى، وأعطانا ابن حزم خلاصته فى بيت شعرى ينضح خيلاء، وفى مرات كثيرة اتخذت منه رمزا للإسلام الإسبانى:

أنـا الشمسُ فى جوِّ العلوم منيرة
ولكـن عيبـى أنّ مطلعـىَ الغـرب

• ثائر على الدوام:

كان ابن حزم متمردًا وثائرًا فى شبيبته الأدبية، وفى شيخوخته العلمية، وحتى آخر رمق من حياته، مع ظلال مختلفة. توائم كل فترة، وقليلون سبقوه فى أفكاره؛ وأقل أولئك الذين ساروا بعده على طريقه، وحتى أبناؤه أنفسهم كانوا عاديين، تخلصوا من نير الأدب، والتصقوا بعصرهم، وأشهرهم الفضل أبو رافع، وأصبح وزيرًا لبنى عبّاد فى إشبيلية، وشاعرهم المداح، وما أشد ما كرههم أبوه! واستشهد فى معركة الزلاقة وانتصر فيها المرابطون وهم أشد التصاقًا بالمذهب المالكى، وضيقًا فى فهمه، وانصياعًا لفقهائه، وأشد الناس ملاحقة لأبيه. ولقد تبعه إلى قريته عدد قليل من الطلاب، ولكن المدرسة الظاهرية، وتحديد أسين بلاثيوس لها

فى دراسته لابن حزم لا يعلى عليه، ظلت موضع الملاحقة حتى فى المغرب، ولم يبق لها غير حياتها الذاتية بالكاد. وأما الثناء النسبى الذى حظى به ابن حزم فى عصر الموحدين، والتقدير الذى حظى به من علماء عباقرة، كالغزالى، وابن عربى، وابن رشد، فيعود أكثره إلى ظروف سلبية، كمعارضتهم لفقهاء المالكية، أو إلى توافقات عقلية فى المقام الأول، أكثر مما تعود إلى تقبلهم لآراء ابن حزم، وشق عليهم من بينها مناهضته العنيفة للأشعرية. والحق أن معظم الدراسين على أيامه، وبعدها، حاول أن يرسل به إلى زوايا النسيان، لأنه هاجم الجميع، ولم يقف بهجومه عند المسلمين، لقد هاجم، وبعنف كالعادة، اليهود والمسيحيين، واستطاع هؤلاء فيما بعد أن يردوا له الصاع صاعين، حتى مضى إلى رحاب الله، وبدأ عصر الترجمة فى الأندلس المسيحى، فلم يأخذ اسمه طريقه إلى أوربا فى تلك الفترة، ولم يصبح فى مستوى علماء دونه قامةً، كابن رشد وموسى بن ميمون، فخفت اسمه، وتلاشت سيرته، وظلت مؤلفاته تحت الأرض لا يعرفها إلا عدد قليل للغاية، وظل كذلك إلى أن اخترعت المطبعة العربية، واذهر عصر الاستشراق، وأفلتت الدراسات الأندلسية فى إسبانيا من قبضة التعصب، واستردت القاهرة قيادتها الثقافية للعالم العربى.

وإنه لمثير حقا، أن العدواة البالغة، لهذه الشخصية العملاقة فى تاريخ الفكر الأندلسى، أسهم فيها رجال الدين المتخلِّفون فى العالم الإسلامى المعاصر، واضطلع بالجانب الأكبر منها العلم الأوربى، واشترك فيها عدد غير قليل من الإسبان، فظل اسم ابن حزم، وعلمه، موضع جدل كبير ونقاش حاد، ولكن أحدًا لم يستطع أن يشجبه أبدًا، وعلى الرغم من كل شىء تقاسمته ألقاب جليلة وكريمة: أحسن شاعر، وأحسن فيلسوف، وأحسن متكلم، يثق فيه علماء البلاغة، ويجله رجال الأدب، ويحترمه المثقفون.

كان وحيدًا من أعظم عمالقة الفكر الإنسانى على امتداد تاريخه الطويل!

❑❑❑